خصائص السُّنَن الإلهية وأبعادها العلمية والحضارية

راشد سعيد يوسف شهوان*

الملخص

يحاول البحث -بعون الله تعالى- دراسة خصائص السُّنَن الإلهية ودلالاتها في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة، مشيراً في ثنايا الحديث عن هذه الخصائص إلى أبعادها العلمية والحضارية، وأهميتها في بناء الأُمم وارتقائها.

وقد جاء هذا البحث في مُقدِّمة، ومَطْلَبين، وخاتمة. أمّا الـمُقدِّمة فتضمَّنت حديثاً عن أهمية البحث، وحدوده، ومصطلحاته. وأمَّا الـمَطْلَب الأوَّل فحمل عنوان "خصائص السُّنَن الإلهية وأبعادها العلمية والحضارية". وأمّا الـمَطْلَب الثاني فوُسِم بـ "السُّنَن الاجتماعية طريق إلى بناء الأُمم وارتقاء الحضارات". في حين اشتملت الخاتمة على أبرز النتائج وأهم التوصيات.

كلمات مفتاحية: السُّنَن الإلهية، السُّنَن الاجتماعية، بناء الأُمم، خصائص السُّنَن.

* دكتوراه في الشريعة الإسلامية من المملكة العربية السعودية، أستاذ الثقافة الإسلامية في جامعة العلوم الإسلامية العالمية/ الأردن. البريد اللأكتروني: obadashahwan@gmail.com

تم تسلُّم البحث بتاريخ 29/ 8/ 2020م، وقُبِل للنشر بتاريخ 1/ 9/ 2021م.

شهوان، راشد سعيد يوسف (2023). **خصائص السُّنَن الإلهية وأبعادها العلمية والحضارية**، مجلة "الفكر الإسلامي المعاصر"، مجلد 29، العدد 105، 213-251. DOI: 10.35632/citj.v29i105.7727

كافة الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي 2023 ©

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين وبعد، فإنَّ السُّنَن الإلهية، وحُسْن التعامل معها من المفاتيح الرئيسة لفهم الكون والإنسان والحياة، والإسهام الفاعل في بناء الأُمم وارتقاء الحضارات وإصلاحها، لا سيّما المستقبل الحضاري للأُمَّة الإسلامية؛ نظراً إلى ما آلت إليه من الضعف والهوان، والتفكُّك والتجزئة وتكالُب الأُمم عليها.

أمّا الكون بطبيعته السماوية والأرضية، وعناصره وظواهره وكل طاقاته، فيُعَدُّ الميدانَ والمختبر الحقيقي للكشف عن هذه السُّنَن والآيات والقوانين الـمُسخَّرة بين السماوات والأرض؛ بُغْيَةَ إغناء المعرفة، وتوليد الطاقات الكامنة فيه، ثمَّ امتلاك القدرات التي تساعد على تحسين الحياة وتحقيق النهضة.

وقد أعطى القرآن الكريم السُّنَن الإلهية قيمةً عُليا وخطاباً مُتميِّزاً، وأمر الإنسان أنْ يُفعِّل نشاطه وطاقاته ومحاولاته وقدراته؛ لكي يتمكَّن من استكشاف هذه السُّنَن، واستثمارها، وتوظيفها في عمارة الأرض وإصلاحها؛ لأنَّ إدراك السُّنَن الإلهية واستكشافها والتجاوب مع مُسخَّراتها يفتح للإنسان آفاقاً علميةً لا حدود لها، ويُحقِّق له منافعَ وأبعاداً حضاريةً راقيةً.

غير أنَّ موضوع السُّنَن الإلهية، وفِقْه مسائله لم يلقَ الاهتمام اللازم -من المسلمين اليوم- الذي يتناسب مع التركيز القرآني على حقائقه وموضوعاته، عِلْماً بأنَّ دراسة المنهج السُّنَني في القرآن الكريم تُعَدُّ ضالَّةً يبحث عنها الـمُربّون والـمُصلِحون والـمُفكِّرون والعلماء على اختلاف تخصُّصاتهم وتنوُّعها؛ لأنَّ هذا المنهج يمدُّهم جميعاً بالزاد، والوَقود، والانطلاقة، والرؤية، والمعالم، والدلالات العلمية والمنهجية التي يحتاجون إليها.

إنَّ إحياء فِقْه السُّنَن الإلهية والمنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وتفعيل التفكير السُّنَني في الحياة، واستثماره في مختلف التخصُّصات؛ مطلوبٌ اليوم أكثر من أيِّ وقت مضى، وهو لا يقلُّ أهمية عن فِقْه الصلاة والزكاة.

وترجع أهمية البحث من هذا كله إلى المساهمة في إعادة تشكيل العقل الـمُسلِم، واستعادة الدور الحضاري للأُمَّة الـمُسلِمة، وتجديد قدراتها وشحن طاقاتها؛ حتى تكون على مستوى دينها وقرآنها وعصرها، وتتمكَّن من البرهنة على وجودها في التمكين والخيرية والشهادة على الناس، وتحقيق الاستخلاف المطلوب، والمستقبل المأمول؛ لأنَّ الأُمم التي لا تتقدَّم تتقادم، والأُمم التي لا تتجدَّد سوف تتبدَّد. وبهذا يهدف البحث إلى إحياء فِقْه السُّنَن الربّانية، وإحياء المنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وتفعيل التفكير والثقافة السُّنَنية من أجل بناء الأُمَّة الإسلامية، وارتقائها، وتجديد قدراتها.

يقوم المنهج الذي يتطلَّبه البحث على كلٍّ من الاستقراء والتحليل؛ وذلك لتتبُّع بعض النصوص، وتحليلها، واستنباط المضامين والتوجيهات الـمُتعلِّقة بالدلالات السُّنَنية، وربطها، وتوظيفها في التطبيقات الخادمة للموضوع، بالقَدْر المناسب الذي يقتضيه البحث.

تقتضي مُحدِّدات البحث أنْ نتحدَّث عن الموضوع في الدائرة القرآنية والسُّنَّة النبوية وواقع الأُمَّة الإسلامية، وليس عن جميع الأُمم وشرائح المجتمعات البشرية الأُخرى، عِلْماً بأنَّ الخطاب الإسلامي هو خطاب دعويّ عالميّ، يُخاطِب جميع الأُمم، ويُمثِّل ما فيه هدى ورحمة للعالمين.

وكذلك تقتضي مُحدِّدات البحث عدم التطرُّق إلى مسألة انهيار الحضارات، أو الخوض في تفاصيل السُّنَن التاريخية وتطبيقاتها.

أوَّلاً: خصائص السُّنَن الإلهية وأبعادها العلمية والحضارية

- الخصائص لغةً

لفظ "الخصائص" مُشتَقٌّ من الفعل "خَصَّ"، وجذره "خصص". أمّا المفرد فهو "خصيصة" و"خاصية"؛ وهي الصفة التي تُمَيِّز الشيء من غيره سَلباً أو إيجاباً (ابن منظور، د.ت، ج7، ص24؛ المعجم الوسيط، د.ت، ج1، ص24). والخصائص تتعلَّق بماهيّة الأشياء وهيئتها الداخلية الذاتية،

وما هو كامن فيها من صفات وطاقات وقوَّة تأثير مادِّية، أو ما اصطلح القاضي عبد الجبّار على تسميته الكمون،[1] مثل: خاصية الإرواء في الماء، وخاصية الإحراق في النار، وغير ذلك ممّا اختصَّت به الأشياء من خصائص ومُميِّزات.

أمّا السمات فتتعلَّق بالأشياء الظاهرة للعين الـمُجرَّدة. قال تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]. وهي تُستخدَم في مقارنة الشيء بغيره إذا كان من الأمور الشكلية غير الجوهرية، مثل قولنا: هذا ماء بارد، وهذا ماء حارٌّ، ومثل قولنا: هذا جميل، وهذا قبيح.

- الخصائص اصطلاحاً

تُعرَّف الخصائص بأنَّها تصوُّرات كلية ومضامين عامة تُشكِّل منظومة متكاملة، ورؤية شمولية لموضوع مُعيَّن أو نظام مُعيَّن؛ وبمعنى آخر: هي تصوُّرات كلية وُضِعت في أُطُر ومنظومات مُتجانِسة، وأفكار مُتقارِبة تتعلَّق بموضوع مُعيَّن؛ ما يساعد على فهمه، ورؤيته، ومعرفة وظائفه، وتميُّزه من غيره.

وحديثنا عن خصائص السُّنَن الإلهية في هذا المقام ليس كما تعوَّدنا أنْ نسمع عن خصائص الشريعة، أو النظام الإسلامي، أو خصائص الثقافة الإسلامية، مثل: خصيصة "الوسطية"، و"العالمية"، و"الإنسانية"، و"الإيجابية"، وغير ذلك ممّا أَلِفنا سماعه.

ولكنَّه حديث عن نوع آخر من الخصائص الـمُتعلِّقة بالسُّنَن الإلهية، يتمثَّل في سبع خصائص، هي:

- الربّانية.
- التسخير والقابلية للكشف.
- الاطِّراد، والتلازم، والانتظام.
- الوحدة، والتوازن، والاتِّساق، والتكامل.

[1] لتعرُّف المزيد عن الكمون والسببية، انظر (الأسدآبادي، د.ت، ج9، التوليد).

- الثبات، والاستقرار، وعدم التخلُّف، والتلازم بين الأسباب والـمُسبِّبات.
- العموم، والحياد، والاستجابة لكل مَنْ يتعقَّلها.
- التداخل، والاشتراك، والترابط.

وفي ما يأتي تفصيل وبيان لكلٍّ من هذه الخصائص:

1. الربّانية

إنَّ التصوُّر الإسلامي لخصائص السُّنَن الربّانية، بوصفه مُنبثِقاً عن النظرة الكلية الشاملة للكون والإنسان والحياة، إنَّما هو تصوُّرٌ مُستمَدٌّ من القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة. وهذا التصوُّر يشير إلى أنَّ أُولى خصائص هذه السُّنَن على اختلاف أنواعها (الكونية، والتشريعية، والإنسانية، والاجتماعية، والتاريخية) هي "خصيصة "الربّانية"؛ أيْ إنَّها من تقديرات الله تعالى، وعاداته، ووقائعه، وقوانينه، وآياته، وأفعاله التي أودعها الله سبحانه في الوجود، أو أنـزلها في خَلْقه، بوصفه جَلَّ جلاله ربَّ كل شيء، وخالقَ كل شيء ومليكه" (قطب، 1399هـ، ص51). وهي تُشير إلى أنَّ الله تعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، وأنَّه يدير الكون من داخله ومن خارجه، بكل ما أودع فيه؛ من: عناصر، وظواهر، وخصائص، وسُنَن، وطاقات. وهي كلها تجري على مراد الله تعالى، وعنايته، وحكمته، وتشهد بوحدانيته الكاملة، وتثبت ربوبيته وعدله الـمُطلَق.

وتعني هذه الخصيصة أيضاً أنَّ الله سبحانه وتعالى مُمِدٌّ هذه السُّنَن بالتأثير والديمومة والفاعلية، وليس للإنسان فيها أكثر من اكتشافها، واستثمارها، واستدرار خيراتها، والانتفاع بمُقدَّراتها. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: 50]، وقال ﷻ: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [الفرقان:2]، وقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: 7]، وقال جَلَّ جلاله: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ ﴾ [الأنعام: 1].

وخصيصة "الربّانية" هي أوَّل مسألة، وأهمُّ قضية في الخَلْق والأمر، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف: 54]، يجب قراءتها وفهمها في هذا الإطار فهماً صحيحاً. قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى

خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1]. وهذه الآية الكريمة هي عُمْدة القراءة للكون والإنسان والحياة من منظور هذه الخصيصة، فإذا أتقنها الإنسان، وصَحَّ إيمانه وتوحيده، صَحَّت قراءته لكل مظاهر الوجود.

والإنسان مخلوق لله سبحانه وتعالى، جاء إلى الوجود بتقدير الله وفعله، وإنَّ لوجوده غاية ربّانية عظمى تتمثَّل في العبادة، وتحقيق الخلافة، وحمل الأمانة، وعمارة الأرض وإصلاحها، والشهود الحضاري.

إذن، فهذه هي معالم القراءة الربّانية الصحيحة لخَلْق الإنسان، وهذه هي معالم القراءة الصحيحة لخصائص السُّنَن الربّانية؛ فإذا أحسن الإنسان فهمها، وفِقْهها، والعمل بها، والتعامل معها تعاملاً صحيحاً، كانت قراءته صحيحة، ونتائجه سليمة، وإنْ أخطأ في قراءتها، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً، ولم يعرف سبب مجيئه إلى هذه الدنيا وخروجه منها.

وهذا ما يُميِّز التصوُّر الإسلامي للسُّنَن الربّانية، والاستفادة من خصائصها، من سائر التصوُّرات الوضعية والفلسفات المادِّية، التي تُعلِّل قوانين الوجود، وتُفسِّر أحداث الحياة وحركة التاريخ والاجتماع البشري بالمصادفة، وصراع الأضداد، والتطوُّر التلقائي للكائنات الحيَّة، والفيض، والصدور، إلى غير ذلك من القراءات والتصوُّرات المادِّية الضالَّة (القرضاوي، د.ت، ص7).

وهذا ما يجعلنا في موضع الثقة والطمأنينة من التلقّي، والتصوُّر اليقيني لحقائق الأشياء، والمعرفة الكاملة الشاملة والصحيحة بتاريخ الكون، وغاية الحياة، وحقيقة الإنسان، ومركزه، ووظيفته، ومهمته، ومسؤوليته في هذا الوجود، وبعثه، ونشوره.

وهكذا يتأكَّد لنا من هذه الخصيصة أنَّ السُّنَن -على اختلاف أنواعها- إلهية المصدر والمنهج، وربّانية الغاية والوجهة، وأنَّ الخصائص الأُخرى كلها ترتكز على هذه الخصيصة، وتنبثق عنها، ذلك أنَّها تُبصِّرنا بكبرى الحقائق الكونية، واليقين بعظمة الله تعالى، والثقة بتدبيره لشؤون الكون كله، وأنَّه لا مكان للعبث والمصادفة العمياء. قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الروم:8].

إنَّها تُبصِّرنا بمركزية الإيمان في صناعة الوعي بالكون، بكل عناصره وظواهره، واستبعاد الأُلوهية في مجال الطبيعة بأسرها (الفاروقي، 2015، ص11–19).

وكذلك فإنَّها تمُدُّنا بفاعلية الإيمان في التأسيس للوظائف الإنسانية، مثل الوظيفة المعرفية الموضوعية والعلمية، للنظر في هذه السُّنَن، واستكشافها، واستثمارها، والتعامل معها. وكذلك تُكسِبنا الرؤية المنهجية، واستبعاد التربية العشوائية والعبثية والفوضوية في إدارة الكون وتفسير ظواهره، وتجاوز التفكير الخرافي والأسطوري والإلحادي، مُؤكِّدةً سلامة التصوُّر، وصدق التلقّي والاعتقاد.

فهي خصيصة تُولِّد جميع الفضائل والكمالات، وتسري في كل شيء، فما من أثر جميل وخُلُق كريم وفائدة عظيمة إلّا ناتج منها، وهي وعاء لكل قِيَم الإسلام كبيرة كانت أم صغيرة، ويترتَّب عليها كل الآثار والفوائد والثمار، فلله الحمد والمِنَّة.

2. التسخير، والقابلية للكشف

التسخير هو خضوع الكون –بكل نِعَمه، وطاقاته، ومُكوِّناته، ومخلوقاته، وما يتعلَّق به من عناصر وظواهر– لأمر الله تعالى وعنايته وتدبيره، وتهيئته لأداء مهمته ووظيفته التي خُلِق من أجلها؛ بُغْيَةَ الاستفادة منه (الفيروزآبادي، د.ت، باب: الراء، فصل: السين، ص19؛ الراغب الأصفهاني، 1412هـ، ج1، مادَّة "سَخَرَ"، ص402)، على نحوٍ يكون فيه مستجيباً لقدرات الإنسان، ومُنسجِماً مع أهدافه ومهامه وطموحاته وحاجاته، ومُلبِّياً لمُتطلَّبات خلافته وتكليفه بعمارة الأرض وإصلاح الحياة.

وخصيصة "تسخير" السُّنَن وقابليتها للكشف نجدها تتردَّد كثيراً في القرآن الكريم بوصفها قاعدة مهمة، يُوجِّه القرآن الكريم العقل الإنساني إليها؛ ففي آيات عديدة من كتاب الله الـمُعجِز، نجد تأكيداً مستمراً على أنَّ السماوات والأرض، وما في هذا الكون من أشياء بصفاتها، وتركيبها الجغرافي والفيزيائي والكيميائي والحيوي ... قد هُيِّئت تهيئة خاصة، وذُلِّلت كي يستخدمها

الإنسان في منافعه وتطبيقاته العلمية والعملية؛ ارتقاءً في معاشه وعمرانه، ولو لم تكن كذلك ما استطاع الإنسان -بإمكان عقله، أو حِسِّه- أنْ يستثمر ما فيها، أو يصل إلى شيء من كشفه، أو الاستفادة منه البتة.

والآيات الكريمة التي تحدَّثت عن هذه الخصيصة تمنحنا التصوُّر الإيجابي لمهمة الإنسان العمرانية والحضارية، وتُبصِّرنا بمهمة الإنسان الـمُكرَّم بما منحه الله تعالى من حريةٍ، واختبارٍ، وتحمُّلٍ للمسؤولية والأمانة والعهد (الفاروقي، 2015، ص25)؛ ليقوم بدوره، ويستفيد من هذه النِعَم والـمُقدَّرات التي سُخِّرت لنشاطه، وأُخضِعت لقدراته؛ ليتعامل معها تعاملاً إيجابياً فعّالاً. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]. وفي هذا المعنى، قال الدكتور البوطي -رحمه الله-: "فجُمْلة ما يُقرِّره القرآن عن الكون أنَّه خادم أمين، مُسخَّر للإنسان، يستفيد منه الإنسان بمقدار ما يتأمَّل فيه، ويستبطن ظواهره. وكلمة "التسخير" من أقوى التعابير في الدلالة على الخدمة المستقرة الدائبة، وعلى الإنسان أنْ يستفيد منه، ويُسخِّره لصلاحه في المعاش والمعاد الأُخروي" (البوطي، 1962، ص62).

ولنتصوَّر كيف سيكون الحال لو كانت الشمس والقمر -مثلاً- أقرب قليلاً من موقعهما، أو أبعد قليلاً عنهما، أو إذا كانت الجاذبية أخفَّ ممّا هو مُقدَّر لها، أو أثقل من ذلك، أو إذا كان الغلاف الجوي على غير ممّا هو عليه من النسب المحدودة، أو إذا كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح والرياح راكدة، ومحور الأرض غير عمودي، وشكلها غير بيضوي!

والحقيقة الثابتة أنَّ الله سبحانه وتعالى قدَّر في الأرض أقواتها، وفي السماء موازينها وأقدارها، وحدَّد أبعادها وحجومها بما يتلاءَم والمهمة الأساسية المنوطة بالإنسان، ويجعلها مُوافِقة لتكاليفه الشرعية والمادِّية والمعنوية.

ومن حكمة الله تعالى أنَّه لم يُمهِّد العالَم تمهيداً كاملاً، ولم يكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره كلها؛ لأنَّ ذلك يحمل العقول على تبنّي حقائق علمية دون البحث عنها بالتجارب والبراهين، وهذا

ما لا يحمل القرآن الكريم أحداً عليه؛ تكريماً للعقل، وإطلاقاً للمنهج والبحث والتجريب (البوطي، 1399هـ، ص34).

لأنَّ ذلك أيضاً نقيض عملية الاستخلاف والإبداع التي تتطلَّب جهداً، وسعياً، وتحدِّياً، واستجابةً، ودَأْباً، ونشاطاً؛ ولأنَّه يقود الإنسان إلى التواكل والركون إلى الدَّعَة، ويُسلِّمه إلى الكسل الذي لا تُقِرُّه مهمة الإنسان الـمُتمثِّلة في عمارة الأرض.

ومن أشكال هذه الطاقات الـمُسخَّرة في الكون: الموجات الكهرومغناطيسية، والحرارة التي تصلنا من الشمس، وتؤدّي دوراً في صناعة الاتصالات والأقمار الصناعية. ومن ذلك أيضاً أنواع الطاقات الـمُسخَّرة في الكون التي تُؤثِّر في حياة الإنسان بزخّاتها وموجاتها، مثل: الأكسجين، والضوء، والجاذبية، وغير ذلك ممّا ورد في الكتاب الذي حمل عنوان "الله يتجلّى في عصر العِلْم". ونشير في هذا المقام إلى عدم طاقة كونية يُمكِنه التصرُّف في الكون وتدبيره بمعزل عن الله تعالى مُطلَقاً، أو تكون مستقلة في ذلك عن العناية الربّانية.

وكذلك ينبغي تأكيد أنَّ خصيصة "التسخير" لهذه السُّنَن لا تخدم الإنسان إلّا إذا فهم كيف يتعامل معها وَفق قوانين تسخيرها، والأخذ بمستلزماتها ومقتضياتها، وإلّا ظلَّت مُعرِضة وصامتة أمامه؛ فكما يستعصي القُفْل أنْ يُفتَح بغير مفتاحه، فإنَّ هذه السُّنَن كذلك لا تستجيب بغير معرفة قوانينها، مثلها في ذلك مثل السيّارة التي لا تتحرَّك ولا تستجيب لَمن يجهل قوانين تحريكها وتشغيلها. والزَّرْع يزداد عطاؤه بمعرفة قوانين الزراعة، وتحسينها، وتطويرها. وكذلك الحيوانات والدواجن؛ إذ يزداد إنتاجها بمعرفة قوانين رعايتها، وتدجينها، وتطويرها.

وإنَّ الأُمم التي تَغُضُّ الطرف عن خصائص التسخير لسُنَن الله تعالى ومُقدَّراته في هذا الوجود، إنَّما هي أُمم غافلة، وضعيفة، ومسجونة في جهلها، ومُستعبَدة لغيرها (البشتاوي، 2011، ص35–250).

إنَّ خصيصة "التسخير"، وما يتعلَّق بها من مسائل، تُعَدُّ موضوعاً له أبعاده وتفريعاته المعرفية. وهو موضوع يحتاج إلى عناية خاصة، واهتمام بالغ، ودراسة مُتكامِلة في إطار معرفة أنواع التسخير، وميادينه، ومجالاته، ووظائفه، وأهدافه؛ حتى يُكشَف النقاب عن مكنوناته وطاقاته؛ لتتحقَّق في الحياة ثماره العلمية ومنافعه الحضارية. وهو يحتاج أيضاً إلى أُمم واعية تُنشِئ له المؤسسات العلمية ومراكز البحث، وتُفرِد له الدراسات التطبيقية اللازمة لنهضة شعوبها.

3. الاطِّراد، والتلازم، والانتظام

الاطِّراد لغةً: الاستمرار، والانتظام، وعدم التخلُّف. يقال: اطَّرد الأمر إذا استقام، وجرى على عادته، وتبع بعضه بعضاً. والطريدان هما: الليل والنهار (الفيروزآبادي، د.ت، ص378). وخصيصة "الاطِّراد والانتظام" نجدها في كل شيء في هذا الكون والخَلْق، وهي تنبض في الكائنات الحيَّة والموجودات غير الحيَّة، ويُمكِن الإحساس بها وإدراكها بالفكر، واليد، والذوق، والشَّمِّ، والسمع، والبصر. ومن ثَمَّ، فإنَّ الربّانية مُنتظِمة انتظاماً مذهلاً، وهي تمتاز بأنَّها غاية في الدقَّة والإتقان. قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3] (أبو سنينة، 2002).

وهذه الخصائص (الاطِّراد، والتلازم، والانتظام) هي مُكمِّلة لخصيصة "التسخير"، ومُشترِكة معها، ومُوضِّحة لها.

وقد أشارت آيات كثيرة في القرآن الكريم إلى وجود القانون، والحكمة، والغاية، والاطِّراد في نظام الكون. وهذا ما تدلُّ عليه كلمة "بالحقّ"، التي تَرِدُ كثيراً في القرآن الكريم، وتحتاج إلى استقراء شامل؛ لاستجلاء ما تشير إليه من دلالات علمية، وتوجيهات سُنَنية، وقوانين كونية، ويترتَّب على وجودها؛ (أيْ كلمة "بالحق") وجود مفهوم "القانون"، والانتظام في الأشياء، وماهيَّتها الطبيعية، وضرورة خضوعها لسُنَن وقواعد مُطَّرِدة، ديدنها الانتظام، وعدم التخلُّف.

والقرآن العظيم كثيراً ما يلفت الأذهان والعقول والأنظار والأبصار إلى ما في الكون من آيات، وإلى ما فيه من سُنَن مُرتبِط بعضها ببعض ارتباطاً مُطَّرِداً؛ ما يوحي بأنَّ السُّنَن والحوادث

والـمُسبِّبات إنَّما تصدر عن أسباب، وهو ما يوحي بفكرة "السببية". فالمطر -مثلاً- ينهمر من السحاب، والثمر يُزهِر على الشجر، والشجر ينبت من الماء والتراب، والماء يتكوَّن من عنصرين، هما: الهيدروجين، والأكسجين.

ومن الـمُلاحَظ أنَّ القرآن الكريم لم يستعمل لفظ "السببية"، وإنَّما عرض لصورة الكون بما يدلُّ على الاقتران الـمُنتظِم الـمُطَّرِد. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، وقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: 37-40]، وقال ﷻ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [ق: 9]. ولننظر أيضاً كم هو واضح هذا المعنى في العلاقة بين العناصر الكونية والظواهر الكونية، وارتباط الأسباب بمُسبِّباتها، في مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: 1] فثمة ارتباط بحركة العناصر السماوية (الشمس، والقمر) ارتباط الأسباب بمُسبِّباتها؛ من شروق، وغروب، وغير ذلك، وهذا ما تدلُّ عليه كلمة "خَلَقَ" وكلمة "جَعَلَ"، ودلالة كلٍّ منهما، وهو ما ينسحب أيضاً على الظواهر الكونية الأُخرى.[2]

4. الوحدة، والتوازن، والاتِّساق، والتكامل

يتمثَّل التوازن، والاتِّساق، والتكامل في كل شيء، على اختلاف نوعه، فنجده -مثلاً- في: الاتزان الغذائي، والاتزان الكوني، والاتزان البشري، والاتزان الحيوي، والاتزان الحيواني. وكذلك نجده في المجال الكهربائي، والمجال المغناطيسي، وفي كل ما في الكون من طاقات وهالات. وسنشير في ما يأتي إلى هذه الخصيصة، وما لها من دلالات علمية وأبعاد عقدية في ترسيخ الإيمان واليقين

[2] للاستزادة، انظر:

- نخبة من العلماء الأمريكيين (د.ت). **الله يتجلّى في عصر العلم**، ترجمة: الدمرداش عبد المجيد سرحان، إشراف: جون كلوفرمونسيما، بيروت: دار القلم للنشر والتوزيع.

- البرنامج الإذاعي "لا يوجد تناقض" there is no clash، تقديم: كلير فورستر."

والثقة بوحدانية الله، وأهميتها في تعرُّف التكوينية، والعناية والتدبير في ما يختصُّ بقوانين الله تعالى المضبوطة والموزونة، التي لا يعتريها نقض أو نقد أو نقص.

فالعالَم الذي نعيش فيه، بكل ما يشتمل عليه من كائنات حيَّة، وموجودات غير حيَّة، محكومٌ بدقَّة فائقة من الأنظمة والقوانين والسُّنَن التي تضبط سلوكه، ومسيرته، وحركاته من أصغر ذَرَّة إلى أكبر مَجَرَّة فيه؛ ما يثير فينا الإعجاز والدهشة والإجلال لِما أودع الله فيه من خصائص الانسجام والاتِّساق. قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: 3]. وهو ما يفوق تصوُّرنا، ويُضعِف قدراتنا حياله. ولهذا وصف القرآنُ العظيمُ العالـمَ بأنَّه موزون، وفي هذا دليل على التناسق في الخَلْق، الدالِّ على الحكمة الإلهية البالغة، والقدرة العجيبة التي أوجدت كل شيء بمقدار، ووزنت كل موجود بميزان، بحيث تتحقَّق فيه المنفعة التي أرادها الله لعباده (البشتاوي، 2011، ص439). قال الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: 19-21].

وفي ذلك يقول الراغب الأصفهاني: "وقيل: بل ذلك إشارة إلى كل ما أوجده الله تعالى، وأنَّه خلقه باعتدال كما قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: 49]. فالآية الكريمة ظاهرة الدلالة على أنَّ ما يتفضَّل الله به على عباده إنَّما هو وليد الحكمة والقدرة التي تجعل لكل شيء مقداره وميزانه الذي يُنتفَع به، ولا يضرُّ. ونجد هذا التناسق والتوازن في سُنَن الكون كلها؛ في الماديّات والمعنويّات، وفي الليل، والنهار، والحرارة، والبرودة، والماء، واليابسة، ...، وفي المتقابلات كلها، بحيث لا يطغى شيء منها على شيء، ولا يخرج عن حَدِّه الـمُقدَّر له. وكذلك نجده في المجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون؛ إذ كلٌّ منها يسبح في مداره، ويخضع لجاذبية محدودة (مريسيون، د.ت، فصل: ضوابط وموازين، ص159؛ نوفل، 1998، ص26-102). قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:88]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: 7]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: 49].

ويُمكِننا إدراك خصيصة "التوازن والاتِّساق" في سُنَن الله تعالى، في عدد من الآيات القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ [ق: 6 – 10]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: 3–4].

والآيات القرآنية كثيرة في الدلالة على هذه الخصيصة، وكلها تُؤكِّد الترابط والتناسق والتوازن والانسجام في الخَلْق، وتدلُّ على عظمة الخالق ووحدانيته جلَّ جلاله، وعَمَّ ثناؤه (القاسمي، د.ت، ج13، ص211؛ ابن عاشور، 1984، ج13، ص85، وج22، ص112).

5. الثبات، والاستقرار، وعدم التخلُّف، والتلازم بين الأسباب والـمُسبِّبات

بوجه عام، السُّنَن الربّانية ثابتة، ومستقرة، ولا تتخلَّف؛ فما من شيء في هذا الكون إلّا خَلَقَ الله تعالى له صفاته، وأوجد له خصائصه وتقديراته وتراكيبه ونواميسه الكامنة فيه. غير أنَّ هذا الثبات والاستقرار لا ينسحب على جميع أجناس هذه السُّنَن والنواميس، وأنواعها، وما يندرج تحتها من أفراد، تُميِّزها من غيرها بخصوصيات مُعيَّنة.

فالسُّنَن التاريخية والاجتماعية من خصائصها أنَّها ثابتة على الإطلاق، وما عُرِف أنَّها تعرَّضت للخرق في ماضٍ أو حاضر؛ فهي ماضية، ومستمرة، وغير مُتبدِّلة أو مُتغيِّرة على مَرِّ الأزمان؛ نظراً إلى قيامها وبنائها على الحكمة الإلهية. فخرقها يقتضي التناقض في تدبير الله الحكيم الخبير حاشاه سبحانه (رضا، 1990، ج7، ص210). قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

أمّا السُّنَن التشريعية وأحكامها، فنجدها تنقسم قسمين: قسم يُمثِّل الثبات والخلود، وقسم يُمثِّل المرونة والتطوُّر. ويتجلّى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصِّية القطعية للتشريع، مثل: العقائد الأساسية، والأركان، والـمُحرَّمات اليقينية، وأُمَّهات الفضائل التي عَدَّها القرآن الكريم والسُّنَّة

النبوية من شعب الإيمان، ومن شرائع الإسلام القطعية؛ من: شؤون الزواج، والطلاق، والميراث، والحدود، والقصاص، ونحو ذلك من سُنَن الإسلام التي ثبتت بنصوص قطعية الثبوت والدلالة.

وتتباين المرونة في المصادر الاجتهادية، التي اختلف فقهاء الأُمَّة في درجة الاحتجاج بها، وتعدَّدت مذاهبهم ما بين مُوسِّعٍ، ومُضيِّقٍ، ومُكثِرٍ، ومُقِلٍّ من حيث مقدار الأخذ بها، مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح الـمُرسَلة، وقول الصحابي، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط (القرضاوي، د.ت، عوامل المرونة، ص11).

أمّا السُّنَن والقوانين الكونية فهي ثابتة وكامنة في ماهيَّة الأشياء، ومستقرة، ولا تتخلَّف، لكنَّها قد تُخرَق أو تتعطَّل معجزة لنبيٍّ أو كرامة لوليٍّ. وحتى لا يقع الوهم بفاعلية الأسباب مُطلَقاً، والقول بالحتمية المادِّية؛ فقد أجرى الله تعالى تعطيلها أحياناً لحكمةٍ يريدها جَلَّ جلاله.

وخصيصة "الثبات، والاستقرار، وعدم التخلُّف، والتلازم بين الأسباب والـمُسبِّبات" أكثرُ ما تظهر واضحة، في صورها وأحكامها وتطبيقاتها، في السُّنَن الاجتماعية والسُّنَن التاريخية، والسُّنَن التشريعية، وسُنَن الثواب والعقاب. فهي سُنَن لا تتخلَّف، ولا تُخرَق، ولا تتعطَّل، ولا تتغيَّر، ولا تتبدَّل البتة؛ لأنَّ ذلك مُخالِف لعدل الله تعالى، وحكمته، ووعوده، وتعهُّده على نفسه جَلَّ جلاله إثابة الطائعين، ومعاقبة العاصين. ومن ثَمَّ، فهي مُتلازِمة في أسبابها ومُسبِّباتها، وكذلك تجري على كلٍّ من الـمُسلِم والكافر. قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: 43].

ولا شكَّ في أنَّ الترف والظلم والركون إلى الذين ظلموا -مثلاً- من الـمُعجِّلات والـمُسبِّبات لغضب الله وعذابه، ومن أشدِّ الأمراض الحضارية فتكاً بالأُمم والشعوب (برغوث، 1995، ص93؛ السامرائي، 1421هـ، ص3-5). قال ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء: 11-15]، وقال سبحانه: ﴿وَاتُّبِعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود: 113].

يقول الإمام العَلّامة ابن خلدون في "مُقدِّمته": "باب في أنَّ الظلم نذير بخراب العمران." وكذلك نجد سُنَّة تلازم الأسباب ومُسبِّباتها وعدم تخلُّفها في عموم قوله تعالىٰ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا﴾ [فاطر: 43].

6. العموم، والحياد، والاستجابة لكل مَنْ يتعقَّلها

من خصائص السُّنَن الربّانية أنَّها عامة، ولا تحابي أحداً؛ فهي تستوعب جميع البشر؛ مُؤمِنهم وكافرهم، وليست خاصة بالمسلمين وحدهم كما يعتقد بعض الناس؛ إذ تمتاز بالحياد، والاستجابة لكل مَنْ يتعقَّلها. أمّا مَنْ خالفها وتنكَّبها فهي له بالمرصاد.

والله جَلَّ جلاله قد سَنَّ في الحياة الدنيا سُنَناً، ووضع في الكون والوجود أسباباً وقوانينَ. وهذه السُّنَن والنواميس مُقدَّرة بأسبابها وأقدارها وَفق قوانينها الكلية، وهي تؤتي ثمارها ونتائجها إذا اجتمعت شروطها.

ويستوي في ما تقدَّم من شروط ونتائج أنْ يكون المتعاطي معها مُؤمِناً أو كافراً؛ فالإنسان إذا أهمل اكتشاف تلك القوانين، ولم يحفل بأهمية استخدامها، فإنَّه يصبح ضعيفاً ولو كان مُؤمِناً. أمّا الإنسان الذي يكتشف تلك القوانين، ويُسخِّرها في خدمة مصالحه ومجتمعه، فإنَّه يصبح قوياً ولو كان كافراً. ولهذا، فإنَّ الأُمم التي تقدَّمت في اكتشاف السُّنَن الكونية بمعزل عن الأخلاق بلغت رُقِيّاً مادِّياً أدّىٰ إلىٰ اصطناع حضارة مادِّية منقوصة، وكذا الأُمم التي حافظت علىٰ أخلاقها، وغفلت عن السُّنَن الكونية؛ فقد أمست هزيلة ذليلة.

والله سبحانه وتعالىٰ حثَّ الإنسان علىٰ أنْ يبحث في الكون والحياة عن الأسباب والعلاقات التي تربط هذه السُّنَن بعضها ببعض؛ حتىٰ يهتدي إليها، ويعمل بها، وحتىٰ يتحصَّل علىٰ ثمارها، ويُسخِّرها لخدمته في الحياة الدنيا. فالعمل وسيلة لطلب الرزق، والواجب علىٰ الإنسان أنْ يجتهد في طلب رزقه؛ فالفلّاح يحرث الأرض، ويبذر الحَبَّ، ثمَّ ينتظر الرزق من الله تعالىٰ. ولو بقي نائماً، ولم يجتهد في الزراعة ظنّاً منه أنَّ رزقه سيأتيه من غير عمل وتعهُّد للأرض، فإنَّه سيكون واهماً، بل آثماً

لعدم أخذه بالأسباب التي هي قَدَر الله جَلَّ جلاله. وكذلك الدعاة والـمُصلِحون الذين يَنشدون الإصلاح والتغيير؛ إذ يتعيَّن عليهم أنْ يعملوا، ويبذلوا غاية جهدهم؛ لتحقيق ما يصبون إليه من أهداف.

وتنطبق هذه الخصيصة أكثر ما تنطبق على سُنَّة التغيير التي تُعَدُّ أُمَّ السُّنَن؛ فهي سُنَّة تجري على الناس كافةً، وهي قاعدة عامة يخضع لها الناس جميعهم؛ فإذا أخذوا بأسباب التغيير، فإنَّهم سيتغيَّرون. ولهذا، فمن الضروري معرفة سُنَن تغيير الأنفس، وأن على كلّ فرد البدء بإصلاح نفسه؛ لأنَّ الفرد هو مُحرِّك الأحداث، ولأنَّ الفرد الواعي الصالح الـمُصلِح بصورة جماعية هو أهمُّ عناصر قوى التغيير (عبد الحميد، 2000، ص17 وما بعدها).

فالتغيير هو سُنَّة مجتمع، لا سُنَّة فرد. وبالرغم من أنَّ تغيير الأنفس هو أساس لتغيير المجتمع، فإنَّ التغيير سُنَّة جماعية، وليس سُنَّة فردية. وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد ذلك الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: 11]. فكلمة "قوم" تعني المجموعة من الناس، ومدلولها شامل أيَّةَ جماعة. فالحديث في الآية السابقة عن قوم، وعن جمع، له خصائصه، وله عناصره. ثمَّ جاءت كلمة "بأنفسهم" لتشير إلى الجمع مَرَّةً أُخرى. ومن الآيات القرآنية الأُخر الدالَّة على ذلك، قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]. والـمُلاحَظ على هذه الآية ورودُ كلمة "مُصلِحون" فيها بدلاً من كلمة "صالحون".

ومن هنا، يُمكِن القول بأنَّ الفردية ليس لها حظٌّ من التغيير الكافي، لا سيّما تغيير المجتمعات؛ فالتغيير الذي يحدث في المجتمع يقوم على أساس العمل الجماعي، وليس على أساس الجهود الفردية غير الـمُنسَّقة، التي تكون أحياناً مُتضارِبة، ولا تؤدّي الغرض المنشود منها (صبري، 1981، ج4، ص30).

إذن، فالتغيير الفردي غير كافٍ لتغيير المجتمع تغييراً كلياً وجذرياً وشاملاً لجميع نواحيه الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، وغيرها.

7. التداخل، والاشتراك، والترابط

يُقصَد بالتداخل والاشتراك تواردُ السُّنَن بعضها على بعضٍ، وترتُّبها على هذا النحو، وارتباط بعضها ببعض بشيء من العلاقة والارتباط، على نحوٍ يُؤثِّر في ميزان البحث فيها، وإدراك الحقائق، والحُكْم عليها، وفهمها، وتفسيرها. وتُعْزى أهمية هذه الخصيصة إلى دورها الفاعل في الفهم الـمُتكامِل والرؤية الكلية الشمولية لِما يختصُّ بفهم السُّنَن الربّانية، والوصول إليها، والكشف عن تطبيقاتها. ومن ثَمَّ، فإنَّ عدم إدراك هذه الخصيصة، وجهل كثير من الباحثين بكيفية المواءَمة والانسجام والتوفيق بينها وبين خصائص السُّنَن الأُخرى؛ يؤدي إلى خَلل في التصوُّر والاعتقاد لكثير من مسائلها وأحكامها وتطبيقاتها؛ ذلك أنَّه لا توجد سُنَّة إلّا ولها تداخل مع غيرها من السُّنَن. فسُنَن النصر مُرتبِطة بسُنَن التغيير، وسُنَن التغيير مُقدِّمة لسُنَن النصر، وسُنَن النصر تابعة لسُنَن التدافع، وسُنَن العقاب والشِّدَّة مُتعلِّقة بسُنَن الهداية والتشريع، وسُنَن الرخاء مُتعلِّقة بسُنَن التمكين والاستخلاف.

وقد يوجد تداخل في مرحلية السُّنَن، واختلاف في الأوقات والوقائع، وقد تجتمع سُنَّة مع سُنَن أُخر في ظرف واحد، أو واقعة واحدة، أو زمان واحد، ثمَّ يحدث تعارض بينهما، فكيف ندفع إحداهما بالأُخرى؟ وقد تندمج إحدى هاتين السُّنَّتين في الأُخرى، فتنتج سُنَّة جديدة أثرها واحد بالرغم من اختلاف السُّنَّتين إحداهما عن الأُخرى، فما قواعد الترجيح في ذلك؟

إنَّ كل سُنَّة من سُنَن الله مُتداخِلة بغيرها، ولها علاقة بالسُّنَن الأُخرى، مادِّية كانت أم معنوية، وسواء كانت في الكائنات الحيَّة، أو الموجودات غير الحيَّة. فمثلاً، أوقات الصلاة لها علاقة بجسم الإنسان، وطاقاته المادِّية والمعنوية. وتكاد تكون مسألة التداخل بين أنواع السُّنَن، وما يندرج تحتها من تقسيمات وتفريعات، ظاهرة عامة في معظم علوم الشريعة ومقاصد الدين؛ لِما بينها من وشائج وعلاقات. فهي مسألة ليست سهلة، وموضوع يحتاج إلى بحث خاص، ويكاد يكون لُبُّ الإشكال في فهم السُّنَن وتطبيقاتها.

ولم أقفْ -بحسب عِلْمي واطِّلاعي- على كتاب مستقل أصَّل هذا المفهوم، ووضَّح أسبابه، وحقَّق مسائله الـمُتعلِّقة به؛[3] فكل ما وجدْتُ من كتب تحدَّثت عن هذا الموضوع، وظننتُ أنَّها تناولته بشيء من الشمولية والتكامل، كانت أبعد ما يكون عن ذلك، بل إنَّها لم تتطرَّق إلى الموضوع المنشود، وكان الحديث فيها عاماً شاملاً عن خصائص الشريعة ونُظُمها.

ومن أسباب هذا التداخل أيضاً أسلوبُ القرآن العظيم الـمُتميِّز. فحين يتحدَّث القرآن الكريم في آية واحدة عن سُنَّة مُعيَّنة، فإنَّ هذه الآية تصلح أنْ تكون عُرْفاً اجتماعياً، أو قانوناً سياسياً، أو نظريةً اقتصاديةً، أو منهجاً تربوياً، أو عِبْرةً تاريخيةً؛ لِما تُقدِّمه من أهمِّ الحقائق وأدقِّ المعارف معاً في آنٍ واحد. ومن ثَمَّ، يتوارد كل ذلك على خاطر الإنسان، ويستثير مشاعره ووجدانه بهذه المعارف كلها، وتعمل هذه الآية بما فيها من حقائق وقِيَم ومعلومات على التأثير في الـمُتلقّين، فتتعلَّم العقول، وتُؤمِن القلوب، وتعتبر الأذهان، وتترقّى المشاعر، وتستقيم الأخلاق والسلوكات.

والحقيقة أنَّه لا يسعُني التطبيق على هذه الخصيصة في هذا المقام، أو تخريج الفروع على الأصول فيها كما يقول الفقهاء، ونسأله ﷻ أنْ يُبارِك لنا في الأعمار والأفكار؛ لنُفرِد فيها بحثاً، ونبسط القول فيه، ونذكر نماذج وأمثلة تطبيقية عليها من الكتاب والسُّنَّة وواقع الأُمَّة الـمُسلِمة، ونعمل على ربطها وتوظيفها بما يخدم الموضوع، آملاً أنْ يتسنّى للباحثين اجتماع الفهم الـمُترابِط للعلاقة الـمُتداخِلة بين السُّنَن في منظومة واحدة ورؤية كلية شمولية[4] من جميع الجوانب، بوصفها مذهبية إسلامية (أبو السعود، 1975، ص60؛ عبد الحميد، 2022، ص19)،[5] ووحدة مُترابِطة مُتكامِلة، لا تضارب بينها، ولا تصادم، ولا تعارض.

---

[3] قدَّم الدكتور محمد خالد منصور نظرية كاملة عن هذا الموضوع في مشروع أطروحته للدكتوراه، فأَوْلاها عنايةً فائقةً؛ تأصيلاً وتقعيداً وتفريعاً، وحملت عنوان: "التداخل وأثره في الأحكام الشرعية"، لكنَّها كانت في باب الفِقه وأصوله.

[4] التصوُّرات الكلية عند علماء التربية تعني النظرة الشاملة. وقد تبنَّت المدرسة الألمانية المعروفة باسم الجشطلت هذا المعنى، ونادت بقيام التعليم على أساس مبدأ الشمول والكلية، وأجرت تجارب لإثبات صحَّة النظرة الكلية والشمولية في الفهم والإدراك، أثبتت فيها أنَّ الإنسان يميل إلى إدراك الأشياء بصورة كلية مُترابِطة ومُجتمِعة. وهذا هو التصوُّر، أو الاستبصار، أو الغلق. وقد أخذ هذا المفهوم يتوسَّع في التربية حتى أصبح يعني النظرة الكلية الشاملة في مختلف المجالات (عثمان، د.ت).

[5] المذهبية الإسلامية: هي كل ما ذهب إليه الإسلام في أمور الكون، وخالقه، والحياة، والإنسان. أو: هي كليات الإسلام في الوجود كله.

ثمَّ نربط ذلك كله بالمنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة ضمن رباط وثيق مُتماسِك، وبالرؤية الشمولية الـمُتكامِلة، التي تربط الأسباب بالـمُسبِّبات والنتائج بالـمُقدِّمات، وصولاً إلى سبر عِلَل الظواهر الاجتماعية وفِقْه سُنَن التاريخ والحضارات، في إطار علوم الإنسان وقوانين الله الاجتماعية التي وضعها سبحانه لصلاح المعاش والمعاد.

ثانياً: السُّنَن الاجتماعية طريق إلى بناء الأُمم وارتقاء الحضارات

1. تعريف السُّنَن الاجتماعية، وأهميتها

هي وقائع الله جَلَّ جلاله التي جرت عاداته أنْ يُنـزِّلها على عباده وَفقاً لأعمالهم الاختيارية؛ فتكون ثواباً لَمَنْ أطاعوا منهجه تعالى، ووافقوا أوامره، وتجنَّبوا نواهيه، أو عقاباً لَمَنْ خالفوا شرائعه سبحانه، وشاقّوا رُسُله ودعاته (شهوان، 2009، ج2، ص273).

والسُّنَن الاجتماعية سُنَن عامة نجدها في كل المجتمعات الإنسانية، وهي تَتَّسِم بالثبات؛ فلا تتبدَّل، ولا تتحوَّل أبد الدهر. وسورة آل عمران هي أوَّل سورة تحدَّثت عن السُّنَن، ووردت فيها ثلاثون سُنَّة اجتماعية، فضلاً عمّا يُمكِن أنْ نُسمِّيه سُنَناً نفسيةً، وغير ذلك من السُّنَن، وكانت بلاغة القرآن الكريم في التعقيب عليها بصيغة الجمع، مثل قوله ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ [آل عمران: 137]. فهي سُنَن أُمم، لا سُنَن أفراد.

وكثير من الباحثين لم يُفرِّقوا في دراستهم للسُّنَن الاجتماعية بينها وبين السُّنَن التاريخية، فتناولوها في نطاق واحد. وهذا هو منهج القرآن الكريم، وطريقته بصفة عامة. وقد تمثّل ذلك الإمام العَلّامة ابن خلدون في "مُقدِّمته"؛ فقد انصبَّت دراسته للسُّنَن الاجتماعية على الظواهر التاريخية التي تمثَّلت في آثار القرب من الله، وآثار البُعْد عنه سبحانه، وأثر الذنوب في هدم الأُمم والشعوب، وأنَّ الظلم نذير بخراب العمران ... وهذا ما أراد أنْ يُؤكِّده حقّاً في "مُقدِّمته"، وأنْ يُخبِر الناس به؛ فمعظم مقاصده في "الـمُقدِّمة" تدور حول هذا الهدف (خليل، 1405هـ، ص64 وما بعدها)؛ أيْ تعريف الناس بعِبَر التاريخ، ودروسه وعظاته، وأسباب التغيير والاستبدال؛ لأنَّ التاريخ -في نظره- يُمثِّل

حركة الإنسان، وتذبذبه بين الهداية والضلالة. فالخط البياني الذي أراد ابن خلدون أنْ يرسمه لمسيرة الإنسان، من آدم ﷺ إلى نهاية الدهر، يتمثَّل في قوله ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: 16]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124].

وكثير من الباحثين والعلماء المعاصرين، الذين درسوا التغيير الاجتماعي، والنهوض الحضاري، وتقصَّوا أسباب التقدُّم وطرائق علاج أسباب التأخُّر في معاشهم وحاضرهم؛ ربطوا ذلك كله بحديث القرآن الكريم عن السُّنَن الاجتماعية الـمُتعلِّقة بالسُّنَن الأخلاقية، وقِيَم الإيمان وأخلاق النفوس، التي تُشكِّل وحدة موضوعية مُتكامِلة من حيث الأثر والتأثير في حياة المجتمعات ونهضة الحضارات واندثارها. ومن هؤلاء: الإمام محمد عبده، وتلميذه جمال الدين الأفغاني، والكواكبي، والطاهر بن عاشور، ومالك بن نبي، وأنور الجندي، والشيخ أبو الحسن الندوي، وجعفر السبحاني، والسيِّد محمد توفيق البكري، وخير الدين التونسي، وشكيب أرسلان، ومَنْ سبقهم من طلائع العلماء والـمُجدِّدين، من أمثال: إمام الحرمين الجويني، والماوردي، ...، وغيرهم من أصحاب التفكير السُّنَني الذين تأثَّروا بالمنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة.

فالعلاقة بين السُّنَن الاجتماعية والقِيَم الأخلاقية في الإسلام هي علاقة وثيقة ومُتكامِلة ومُتلازِمة. ولهذا، فقد يكون من المناسب والمفيد أنْ نُعرِّف القِيَم؛ لتوضيح العلاقة بين السُّنَن الاجتماعية والقِيَم، فيَتَّضِح المقصود بهذا التصوُّر.

2. تعريف القِيَم

مصطلح "القِيَم" هو من المصطلحات الحديثة الوافدة، بالرغم من أنَّ معناه وأصل مدلوله موجود في العربية. أمّا المصطلح الـمُقابِل له في الإسلام فهو "الأخلاق". وقد استُعمِل لفظ "القِيَم" في العربية بمعنى الاستقامة والاعتدال. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [التوبة: 36]؛ أي المستقيم

الـمُعتدِل، والـمُقوِّم لأمور الناس. وقال جَلَّ جلاله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ [البينة: 2]؛ أي ذات قيمة رفيعة؛ لأنَّها جامعة لِما ذُكِر في كتب الله جميعها.

تُعرَّف القِيَم بأنَّها مجموعة القوانين والمقاييس التي تنبثق عن دين أو جماعة ما، وتكون أشبه بمُوجِّهات للممارسات المادِّية والمعنوية، ويكون لها قوَّة التأثير والالتزام والعمومية، ويُعَدُّ الخروج عليها خروجاً عن أهداف الجماعة ومُثُلها العُليا. وبمعنىً آخر قريب من هذا، القِيَم: هي الـمُرشِد إلى سُبُل الحقِّ، والخير، والحرية، والعدل، والجمال، والتطوُّر، والتقدُّم، والنهضة أو العكس.

ولكنَّ معظم الذين تحدَّثوا عن السُّنَن الاجتماعية أو القِيَم الأخلاقية التي تتعلَّق بواقع المجتمعات المعاصرة، لم يضبطوا حديثهم بالشرع، ولم يُفرِّقوا بين القِيَم الوضعية والقِيَم الشرعية، فجاءت كثير من تصوُّراتهم نسبيّة ومشحونة بالتصوُّرات العلمانية والمادِّية.

ومن الأمثلة على السُّنَن الاجتماعية التي ترتبط بالقِيَم الأخلاقية:

– قوله ﷻ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: 103]. فهذه سُنَّة اجتماعية تُبيِّن أهمية الوحدة بين أبناء الأُمَّة، والاعتصام بحبل الله تعالى؛ فمَنْ أخذ بها تحقَّقت له نتائج الفلاح، والنجاح، والنصر، والنهضة، والارتقاء الحضاري.

– قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النور: 27]. فهذه سُنَّة تُعلِّمنا تنظيم العلاقات بين الناس في زياراتهم والتواصل فيما بينهم.

ومن الأمثلة على السُّنَن الأُخرى التي تُعلِّمنا أصول التعارف والتعايش الاجتماعي بين الناس، قوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: 13].

ومن الأمثلة على السُّنَن الأُخرى التي تختصُّ بتنظيم السلوك الأُسري بين الزوجين وطاعة الولد لوالديه، قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ۝٢٣﴾ [الإسراء: 23]. إلى غير ذلك من الأمثلة على

السُّنَن الاجتماعية التي أفاض القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية في الحديث عنها (عدد من المُتخصّصين، 1997، ج1، ص54).

فدراسة السُّنَن الاجتماعية في ضوء السُّنَن الأُخرى، وربطها جميعاً ضمن إطار المنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية؛ كل ذلك كفيل بترقية السلوك الإنساني والحضاري، وإيجاد الإنسان الإيجابي الـمُتفاعِل مع الحياة (الصالح الـمُصلِح).

وتوجد سُنَن تتعلَّق بالتغيير الاجتماعي، وسُنَن أُخرى تتعلَّق ببناء الأُمم ونهضة الحضارات (برغوث، 1995، ص67–100). قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]. فهذه الآية الكريمة تتحدَّث عن نوعين أساسيين من السُّنَن في صلاح الاجتماع البشري وصلاح الدنيا والدين: السُّنَن التشريعية الهادية، والسُّنَن الكونية البانية. أمّا السُّنَن التشريعية الهادية فتتمثَّل في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]؛ أيْ بالعدل؛ لأنَّ العدل أساس الـمُلْك.

وأمّا السُّنَن الكونية البانية فتتمثَّل في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25]. فهذه الآية الكريمة تُبيِّن أهمية الحديد في البناء والتعمير، وأهمية القوَّة في إقامة الحقِّ والعدل؛ لأنَّ الضعيف لا يُسمَع له، ولأنَّ الحقَّ لا بُدَّ له من قوَّة تقيمه، وتحرسه، وتحميه، وتنصره.

وقد أشارت الآية أيضاً إلى إحدى خصائص الحديد (البأس الشديد)، وإلى إحدى السُّنَن الكامنة فيه (المنافع الـمُتعدِّدة)، بوصفه أساس التسلُّح والإعداد العسكري والتقنية؛ ليُعلِمنا الله جَلَّ جلاله سُنَن النصر، وإقامة العدل، وحماية الدين، وليُعلِمنا سبحانه وتعالى أنَّ تحقيق النهضة والتقدُّم وبناء الأُمم والإقلاع الحضاري يخضع لقوانين ربّانية وسُنَن اجتماعية، وأنَّه يتعيَّن على الأُمم أنْ تجمع بين السُّنَن التشريعية الهادية والسُّنَن الكونية البانية الشاهدة في الأنفس والآفاق، وأنَّ انفكاك هذه السُّنَن بعضها عن بعض وإغفال إحداها يُفْضي إلى الضعف والانهزام.

ومن ثَمَّ، فإنَّ الأُمم التي تقدَّمت عن طريق الأخذ بالسُّنَن الكونية البانية والقوانين المادِّية بمعزل عن السُّنَن الهادية والتشريع الإلهي، تمكَّنت فقط من بناء حضارة مادِّية خالصة تفتقر إلى التوجيهات الأخلاقية والشرائع السماوية التي تحكم العلاقات بين الناس. أمّا الأُمم التي التزمت بسُنَن التشريع، ولكنَّها غَضَّت الطرف عن السُّنَن الأُخرى، فهي أُمم ضعيفة ذليلة؛ لأنَّ الأُمم التي لا تراعي مسؤوليات ما أمر به الله تعالى، ولا تأخذ بالسُّنَن الاجتماعية وسُنَن التحضُّر والبناء والعمران التي أمر الله بها، لتحقيق الاستخلاف المطلوب والإفادة الـمُثلى من موروث الحضارات الأُخرى؛ فإنَّها -لا محالة- ستُهزَم في معركة الحياة بعد خروجها عن قوانين الله تعالى في الاجتماع البشري؛ لأنَّ مَنْ شَذَّ عن سُنَن الله في هذا الوجود، فهي له بالمرصاد (شهوان، 2009، ص433).

ومن الآيات الدالَّة دلالةً واضحةً على ما تقدَّم، قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ [الكهف: 96-97]. فهذه الآية الكريمة تُعلِّمنا سُنَن القوَّة والضعف، وأسباب النصر والهزيمة، وأنَّ التاريخ لا يُسطَّر بالإيمان وحده، وأنَّ التحلّي بالإيمان والتسلُّح بالقِيَم الأخلاقية هما من أسباب القوَّة؛ فالأمور مُقدَّرة بأسبابها وأقدارها وَفق قانون كلي. ومن ثَمَّ، فإنَّ وجود الإيمان، والحديد والنار، واليد العاملة معاً يُنتِج القوَّة الفاعلة الـمُغيِّرة. فهذه كلها أقدار الله تعالى في تحقيق النصر والبناء والنهضة؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلّا به فهو واجب.

وثمَّة مُثلَّثان من السُّنَن الربّانية التي تحكم حركة الإنسان الاجتماعية، أشار إليهما القرآن الكريم، وهما:

أ. الـمُثلَّث الذي يرتكز على السُّنَن الآتية:

- سُنَّة التداول. قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

- سُنَّة التدافع. قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة:251]، وقال سبحانه: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20].

- سُنَّة التغاير والاختلاف. قال ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود:118].

ب. الـمُثلَّث الذي يرتكز على السُّنَن الآتية:

- سُنَّة الابتلاء والتمحيص. قال تعالى: ﴿﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: 31].

- سُنَّة الإهلاك وإزهاق الباطل. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ [مريم: 98]، وقال ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: 74].

ت. سُنَّة الآجال، والأعمار المحتومة، والحَدِّ الزمني. وهذه السُّنَّة تُؤكِّد النهاية، والفناء، والتآكل، والانحسار لكل شيء. قال عَزَّ من قائل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34].

وسُنَن الله الاجتماعية في الإهلاك تتجاوز مُعوِّقات القوَّة والعُدَّة؛ فالله تعالى غالب على أمره، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون، وهو الحاكم سبحانه، لا مُعقِّب لحُكْمه، ولا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء. فهذا المِقَصُّ الإلهي أتى على الأُمم الظالمة، فأخرجها من سِيَر التاريخ، وطواها بعد أنْ قصمها بضربات موجِعة غير مسبوقة. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: 11]، وقال سبحانه: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: 10-14].

فحَرِيٌّ بنا أنْ نتعلَّم كيف نصغي إلى الخطاب القرآني وهو يُعلِّمنا كيفية التعامل مع هذه السُّنَن الاجتماعية والتاريخية؛ لأنَّنا كثيراً ما نصاب بانفصام وجداني عن الخطاب القرآني، ونغفل عن مقاصده.

وهو يُعلِّمنا أيضاً كيف نصنع المستقبل والحياة السعيدة الطيبة. قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]. وكذلك يُعلِّمنا كيف نعود إلى الوراء؛ لنَفْقَه مسيرة الحضارات وحركة التاريخ، فيضعنا في نبض التاريخ ونهجه الصحيح؛ لنستفيد من خبراته، ودروسه، وقوانين الله تعالى

وسُنَنه في خَلْقه. ويُعلِّمنا كذلك كيف نعيش الواقع في أمن، وأمان، وسعادة، واستقرار (خليل، 1403هـ، ص7–9). قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 123–124].

ومن الواجب في هذا المقام ملاحظة أنَّ بعض السُّنَن والقِيَم الاجتماعية تُفْضي إلىٰ نتائج غير محمودة وانحرافات خطيرة إذا تعامل الناس معها وَفق معايير غير صحيحة ومعادلات معكوسة ومُخْتَلَّة، ومن ذلك –مثلاً– قيمة العِلْم وقيمة الجهل. فالجهل مع التديُّن يُنتِج الإرهاب، والجهل مع الغنىٰ يُنتِج الفساد، والجهل مع السُّلْطة يُنتِج الاستبداد، والجهل مع الفقر يُنتِج الجرائم، والجهل مع الحرية يُنتِج الفوضىٰ. ولكنْ، ما إنْ تُستبدَل قيمة العِلْم بقيمة الجهل، حتىٰ تستقيم المعادلات والقِيَم الاجتماعية، ويوضَع كل شيء في مكانه الصحيح. فالعِلْم مع الفقر يُنتِج القناعة، والعِلْم مع الغنىٰ يُنتِج الحضارة، والعِلْم مع الحرية يُنتِج الإبداع، والعِلْم مع السُّلْطة يُنتِج العدل، والعِلْم مع الدين يُنتِج الاستقامة، وهكذا.

3. الأبعاد المنهجية للسُّنَن الاجتماعية وعلاقتها بغيرها من السُّنَن

وجَّه القرآن الكريم الفكر البشري إلىٰ التقاط "الحوادث" بوصفها "عِبَراً". وهذا من أعظم النقلات المعرفية التي نُقِل بها العقل؛ فتجديد النظرة إلىٰ ما يدور في الزمن يُخرِج العقل من إِلْف العادة التي تُنسي ما تنطوي عليه الأحداث والقوانين والظواهر؛ من: سُنَن، وآيات، ومعادلات، وأقدار، ودروس، وعِبَر. قال تعالىٰ: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: 44]. ويُفهَم من هذه الآية الكريمة، في إطار فهم السُّنَن الاجتماعية، ما يأتي:

أ. ارتكاز التقليب الكوني والتغيير الاجتماعي علىٰ حركة واعية مدروسة، وليس علىٰ المصادفة والعشوائية.

ب. انقسام التقليب قسمين: تقليب كوني يتعلَّق بالسُّنَن الكونية (الليل والنهار، البَرْد والحَر، الشتاء والصيف)، وتقليب يتعلَّق بالسُّنَن الاجتماعية أو السُّنَن التاريخية (النصر أو الهزيمة، الاستبدال أو التمكين والاستخلاف).

ت. التفريق بين العِبْرة والاعتبار؛ فالعِبْرة هي العِظة والدرس. والاعتبار هو الترجمة العملية والتوظيف الفعلي والعملي لهذه الدروس والعِبَر والاستفادة منها؛ ما يُقلِّل من احتمالية الأخطار أو الوقوع فيها مَرَّةً أُخرى.

ث. الوصف القرآني للذين يفهمون المعادلات الربّانية في تقليب الليل والنهار، وما ينطوي عليها، بتسميتهم أُولي الأبصار. وهذا يعني أنَّ أُولي النُّهى، أو أُولي الألباب، أو الـمُتوسِّمين، أو ذوي الحجر، مِمَّنْ ورد ذكرهم في نهاية كثير من الآيات التي تتحدَّث عن السُّنَن الربّانية، إنَّما يُمثِّلون تصنيفاتٍ علميةً قرآنيةً، ومصطلحاتٍ منهجيةً مقصودةً، وأوصافاً ومراتبَ علميةً مُحدَّدةً، لها أبعادها المعرفية التي تُقدِّم تصوُّرات جديدة لتخصُّصات مُتنوِّعة، فمثلاً الفقيه غير الـمُحدِّث، وأُولو النُّهى غير الـمُتوسِّمين، والـمُؤرِّخ غير عالِـم التاريخ أو فيلسوف التاريخ، وهكذا.

غير أنَّنا نغفل كثيراً عن هذه الأبعاد المنهجية والتصنيفات العلمية في الخطاب القرآني؛ فالسُّنَن الاجتماعية أو السُّنَن التاريخية مَخْزن للخبرات، ومُعلِّم كبير لبناء الأُمم ونهضة العِلْم والحضارات. والقرآن بهذا يُعلِّمنا المنهجية العلمية في احترام التخصُّصات والمهارات والمشارب.

وممّا يُؤسَف له أنَّ الأُمَّة الإسلامية لم تعقل ذلك كله؛ فحاقت بها قارعة الصليبيين، ثمَّ قارعة التتار، ثمَّ قارعة الأندلس، وها هي قد حلَّت بها نكبة فلسطين، واحتلال بيت الـمَقْدس، ونكبة العراق جمجمة الإسلام، ولا تزال هذه الأُمَّة تعيش في غياهب التخبُّط والانحراف، ونسأل الله تعالى أنْ يستخدمنا ولا يستبدلنا.

فالأُمَّة الإسلامية لم تدرس أسباب ما أصابها من كوارث ومِحَن، ولم تضع "الحلول الصحيحة" لمعالجتها، ولم "تدرس" طرائق العلاج، ولا "أساليب الوقاية"؛ فاجتاحها النظام الدولي الجديد، ومزَّق خصوصياتها، ومن ثَمَّ أخفقت في مواجهة مُصابها الجَلَل، ولم تتمكَّن من التعامل معه بصورة علمية صحيحة؛ ولم تستقرئ السُّنَن والعِلَل والأدواء على هدى وبصيرة من سُنَن الله تعالى في التغيير والاستبدال، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

4. أثر السُّنَن الاجتماعية في ترسيخ القِيَم الإنسانية الفاضلة بين الأُمم والحضارات

لا شَكَّ في أنَّ الأخذ بالسُّنَن الاجتماعية، والاعتبار بها وَفق المنهج السُّنَني في القرآن الكريم، له ضرورة بشرية ووظيفية، ودور عظيم في ترسيخ القِيَم الإنسانية التي تضبط سَيْر المجتمعات، وتنشر الرحمة والأمن والأمان والمحبة والوئام بين الناس أجمعين. فالحضارات البشرية سلسلة مُتماسِكة الحلقات، يُؤثِّر السابق منها في اللاحق، ويجمعها ميراث واحد من القِيَم المشتركة.

ومع ذلك، فقد انطبعت كل حضارة بطابعها الـمُتميِّز الـمُستمَدِّ من تصوُّر أهلها للكون والحياة، وهو تصوُّر يجعل لكل حضارة خصائصها وذاتيتها الـمُتفرِّدة عن غيرها من الحضارات.

ومن الـمُسلَّم به أنَّ الحضارة الإسلامية مثَّلت حلقة من أهمِّ حلقات هذه السلسلة الحضارية، وتميَّزت من غيرها من الحضارات بمُميِّزات وخصائص فريدة، في سُنَنها الاجتماعية، وقِيَمها الإنسانية، وأُسسها وقواعدها الأخلاقية التي قامت عليها، فكانت دافعة إلى التقدُّم والنهوض الحضاري؛ فهي لم تقم على الصراع والعِداء، ولم تعرف العنصرية والشعوبية والطبقية والعِرْقية، وإنَّما قامت على سُنَن اجتماعية تروم تحقيق كرامة الإنسان، ومراعاة مصالحه، ونشر الحقِّ والخير والهداية بين الناس كافةً (البوطي، 1402هـ، ص15).

والحديث عن هذه القواعد والسُّنَن الاجتماعية والأخلاقية يطول، وحَسْبُنا هنا أنْ نشير إلى بعضها، ثمَّ نعود إلى استكمالها في بحث آخر إنْ شاء الله تعالى.

فمن هذه السُّنَن الاجتماعية التي تُعَدَّ طريقاً إلى تقدُّم الأُمم وارتقاء الحضارات:

أ. سُنَن الاختلاف والتدافع بين الحضارات (اختلاف تنوُّع وتكامل، لا اختلاف تضادٍّ):

إنَّ الاختلاف والتنوُّع بين الناس، والتدافع بين الحضارات، سُنَّة من سُنَن الله الاجتماعية التي أقام الله تعالى عليها عمارة الكون، وصلاح الحياة وغناها، وتقدُّم الأُمم، وتكامل الحضارات. ومن ثَمَّ، فلا يُمكِن لهذا القانون الربّاني أنْ يزول، أو ينتهي. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: 118-119].

غير أنَّ هذا الاختلاف هو اختلاف تنوُّع وتكامل، لا اختلاف تنافر وتنازع وتحدٍّ وصراع وتخاصم وتضادٍّ؛ فهو لا يهدف إلى فرض السيطرة، والبغي في الأرض، والاستكبار العالمي؛ لأنَّ الصراع والخصام والعِداء لا يكون إلَّا بين الحقّ والباطل، وبين الإنسان والشيطان، وبين الخير والشَّرِّ، ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ [الأعراف: 24]، وقال سبحانه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ [الأنبياء: 18]، وقال ﷻ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: 81].

وتأسيساً على ذلك، فإنَّ التعايش والتعارف والتقارب والتعدُّدية والتنوُّع والاختلاف والحوار بين الشعوب المختلفة، هو وسيلة البقاء للجنس البشري، وليس الصراع والقتال والتناحر والتحدّي. ومن ثَمَّ، فلا ينبغي النظر إلى الآخر بوصفه عدوّاً يجب قهره، وإنَّما يتعيَّن النظر إليه بوصفه إنساناً مُكرَّماً، والتعامل معه بمحبة ورحمة، ودعوته بصورة تُحقِّق له حريته وكرامته وهدايته (الحضري، 1436هـ، ص113).

ومن السُّنَن الكبرى التي ركَّز القرآن الكريم عليها في هذا المقام بين الأُمم والحضارات، سُنَّة المدافعة (الخطيب، 2004، ج2، ص5، 107)،[6] وقد جعلها القرآن الكريم عامةً بين جميع الناس، سواء أكانوا مسلمين، أم غير مسلمين. قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]. وهي سُنَّة اجتماعية تختصُّ بأُسس العمران البشري، وصلاح المجتمعات الإنسانية؛ لأنَّها تقوم على التنوُّع والتعدُّد واستباق الخيرات. قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الروم: 22]، وقال سبحانه: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48].

[6] أورد المُؤلِّف في هذا الكتاب نماذج من السُّنَن الاجتماعية على نحوٍ مُوسَّع.

وفحوى هذا التنوُّع والتعدُّد من سُنَن الله الاجتماعية في خَلْقه، إثارة التنافس. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: 35]؛ لأنَّ التسابق في الخيرات هو الذي يُحقِّق لأُمَّة من الأُمم السَّبْق والتفوُّق والتميُّز، وليس القهر والتحدّي والغطرسة والاستعلاء ونهاية التاريخ أو صدام الحضارات. قال ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]. وسُنَّة الاختلاف يجب ألّا تَحول دون البِرِّ، والتواصل، وتبادل المنافع، والتعايش مع الآخرين. قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: 148]، وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر: 18]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: 5]، وقال عَزَّ من قائل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: 46]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

إنَّ الإسلام لم يعرف في تاريخه مفهوم "التخاصم" ومفهوم "التصادم الحضاري"، أو المقاطعات الاقتصادية، وحصار الشعوب والمجتمعات، وقصف الأطفال والنساء، وتدمير دور العبادة، وقتل العُزَّل، وتجويع البشر، وحرقهم واعتقالهم. ومن ثَمَّ، فلا بُدَّ من إعادة النظر في مصطلح "صراع الحضارات" ومصطلح "نهاية التاريخ"، وفي مقولة أنَّ الحضارة الأمريكية قد نسخت الحضارات السابقة عليها، وأنَّها خلاصة التطوُّر البشري الذي يتعيَّن على جميع الأُمم أنْ تقتدي به، وأنْ تحذو حذوه (النجار، 1999 أ، ص12 وما بعدها؛ النجار، 1999 ب، ص15 وما بعدها).

ب. سُنَّة تحمُّل الأمانة والمسؤولية، وتكريم الإنسان وتشريفه، والشهود الحضاري (الشهادة على الناس).

ت. سُنَّة الإصلاح والتعمير، والاستخلاف والتمكين.

ث. فِقْه السُّنَن التشريعية الهادية والسُّنَن الكونية البانية.

وقد جاء ذكر هذه السُّنَن الاجتماعية في آيات كثيرة من القرآن الكريم، من مثل: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ

عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، وقوله جَلَّ جلاله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف:44]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: 73]. فسُنَّة تحمُّل الأمانة والمسؤولية التي تكفَّل الإنسان بحملها هي التي تُجدِّد طاقاته، وتُولِّد لديه الإرادة اللازمة للفعل الحضاري والحراك والنهوض. وكذلك الحال بالنسبة إلى الاستجابة لنداءات الله تعالى في تحمُّل هذه الأمانة، واستكشاف الإنسان نفسه. "نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرِج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ربِّ العباد ..." (ابن كثير، 1997، ج7، ص46)،[7] والاستبصار بذاته، ومعرفته الخصائص التي اختصَّه الله تعالى بها، وكرَّمه بها؛ فذلك كله بمنـزلة الطاقات والسُّنَن الكامنة والقوى الـمُتجدِّدة التي تبعث في الإنسان الـمُسلِم القوَّة والحياة، وتعمل على تشريف الأُمَّة بالانتماء إلى الإسلام، ومنحها الشعور بالخيرية، والاعتزاز بما لديها من دين يدفعها إلى العمل والإصلاح والبناء (إنلو، 2009، ص28).

وبالمثل، فإنَّ سُنَن الاستخلاف والتمكين والتسخير -على اختلاف أنواعها ومجالاتها التي ذكرها القرآن الكريم- تُعَدُّ من أهم السُّنَن والطاقات والأسباب التي تدفع بالأُمَّة الـمُسلِمة إلى التقدُّم والنهوض الحضاري؛ إذا أخذت هذه الأُمَّة بمُتطلَّباتها، وعملت بأسبابها حقيقةً وواقعاً. وهي أيضاً من أهمِّ الـمُحرِّكات لاستنهاض العزائم، وإثارة الطاقات والقدرات الفاعلة اللازمة؛ لتحقيق الشروط الحضارية للنهضة، والبعث، والإحياء، والتجديد للإنسان والحياة والحضارة.

والسُّنَن الاجتماعية في تطبيقها، ومراعاتها الـمُتوازِنة في الحياة، وعدم الإخلال بها، تقوم على بُعْدين أساسيين، هما: الإيمان، والعمران. أمّا الإيمان فهو الترقّي الروحي والخُلُقي الذي يُثمِر تهذيب النفس الإنسانية، وتزكيتها، وتأهيلها لعمل الخير وتحمُّل الشدائد ومقاومة الأزمات؛ لأنَّ تربية الناس على الأخلاق والقِيَم وترسيخها في حياتهم أفضل من تربيتهم على حُبِّ الشهوات، والاعتماد على ما يُقدَّم لهم من خدمات، وربط حياتهم بالحاجيات فحسب.

[7] قول الصحابي الجليل ربعي بن عامر لرستم مَلِك الفُرْس.

ومن الموازين الـمُهِمَّة للسُّنَن الاجتماعية الأخذُ بالشورى، والعدل، والحرية، والمساواة؛ لأنَّها من أهمِّ الـمُقوِّمات والأُسس والأركان التي تمنح الأُمم الاستقرار، والأمن، والأمان، والقوَّة، والبقاء.

وأمّا العمران فهو الترقّي المادي والمدني الذي يتمثَّل في الجهود التي يقوم بها الإنسان لاستثمار مُسخَّرات الكون ومنافعه؛ خدمةً للحياة، وعمارة الأرض وإصلاحها. ومن السُّنَن الاجتماعية الأُخرى التي تُسهِم في بناء الأُمم، وتُكسِبها القوَّة والمناعة والثبات وعدم الذوبان في الآخر، ما يأتي:

أ. الاستناد إلى مُخطَّط فاعل وهادف ومُحكَم في نشر السُّنَن، والالتزام بها (نظرياً وعملياً) (ابن نبي، 1986، ص44–59)، ولا سيما بين الحُكّام والعلماء. قال ابن عباس ﷺ: "صنفان من الناس إذا صَلُحا صَلُح الناس: العلماء، والأمراء" (الأصبهاني، 1405هـ، ج4، ص96؛ ابن عبد البر، 1398هـ، ج1، ص184). فهذا هو الذي يُكسِب الأُمم والدول القوَّة والـمَنَاعة؛ إذ لا قيمة لمُخطَّط نظري وفكرة مُجرَّدة بعيدينِ كل البُعْد عن أرض الواقع، لا سيَّما أنَّ الأفكار الـمُجرَّدة مُؤشِّر على الذوبان وعدم الثبات أو الرسوخ، وضعف المناعة الحضارية، ولا بُدَّ للحقِّ من قوَّة تحميه، وإنَّ الله ليَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن.

ب. الثقة بالذات، والشعور العميق بالإرادة؛ ذلك أنَّ الحضارة لا تُفرَض على الناس، وإنَّما تنبع من مكنوناتهم ومن دواخلهم، وأنَّ الارتقاء بها لمواكبة غيرها من الحضارات يُمثِّل ولادةً داخليةً ومخاضاً عسيراً، يبدأ بالاستبصار بالذات، كما قال الصحابي الجليل ربعي بن عامر لرستم مَلِك الفُرْس حين سأله: ما الذي أتى بكم؟، فقال: "نحن قوم ابتعثنا الله لنُخرِج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ربِّ العباد" كما تقدَّم ذكره.

فهذه السُّنَن الاجتماعية القرآنية هي الإرث الجنيني للأُمَّة الـمُسلِمة الذي يُشكِّل الوعي الأوَّل لشخصيتها، وهي القراءة التي يجب أنْ تظلَّ حاضرة ومُؤثِّرة في تشكيل أفكارها وأفعالها؛ لكي تتمكَّن من تحقيق رسالتها الإنسانية والحضارية والشهادة على الناس. والله غالب على أمره، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

خاتمة

بعد دراسة الخصائص العامة للسُّنَن الإلهية وأبعادها العلمية والحضارية، خرجنا بجُمْلة من الحقائق والنتائج المهمة التي تميّزت بها هذه الخصائص، وما تنطوي عليه من وظائف عديدة، وأهداف علمية، وأبعاد حضارية، وهي:

1. اتّصاف السُّنَن الإلهية -على اختلاف أنواعها- بخصائص عِدَّة، أهمُّها:

أ. السُّنَن الإلهية طاقات، وقوى، وتقادير ربّانية، وقوانين كامنة في ماهيَّة الأشياء وطبائعها.

ب. بعض هذه السُّنَن تختصُّ بالتشريعات أو الوقائع التي جَرَتْ عادات الله تعالى أنْ تُنـزِّل على عباده بحسب أعمالهم الاختيارية ثواباً أو عقاباً، على مقتضى عِلْمه وإرادته وعنايته وعدله، بوصفه جَلَّ جلاله ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه.

ت. السُّنَن الإلهية مُسخَّرة وقابلة للكشف، ولو لم تكن كذلك ما استطاع الإنسان -بإمكان عقله وحِسِّه- أنْ يصل إلى شيء من كشفها، أو الاستفادة منها البتة.

ث. السُّنَن الإلهية تَتَّسِم بالثبات؛ فلا تتبدَّل، ولا تتحوَّل.

ج. السُّنَن الإلهية مُطّرِدة ومُنتظِمة، ولا تتخلَّف.

ح. السُّنَن الإلهية مُحايِدة، وقابلة للاستجابة لكل مَنْ يتعقَّلها، ويأخذ بأسبابها الصحيحة.

خ. السُّنَن الإلهية يتداخل بعضها في بعض، وتشترك معاً في رؤية شمولية مُتكامِلة.

2. تأكيد البحث أنَّ الكون بطبيعته السماوية والأرضية، وبكل عناصره وظواهره وعلاقاته، يتّصف بكل معاني الخير والنعمة والبركة، وأنه مخلوق مسخَّر وطائع وقانت ومُسبِّح لله تعالى، وكذلك تأكيد البحث أنّ الكون بعيد كل البعد عن جميع مظاهر الشرك والألوهية ومعاني التقديس والعبادة، وأنّ السنن الإلهية تتجاوز التفكير الخرافي الأسطوري، ومعاني الإلحاد والحلول والصدفة والعبثية والعشوائية، فضلاً عن إقصائها مفاهيم "التحدي" و"قهر الطبيعة" و"الصراع" و"التناقض" وغير ذلك من التصورات المادِّية.

3. بيان البحث أنّ الإسهام الفاعل للإيمان في فهم السُّنَن، واكتشافها، واستثمارها، هو مَربط

القراءة الصحيحة والموضوعية للكون والإنسان والحياة، وهو العامل الإيجابي للمُحرِّكات الفاعلة لكل أنشطة الحياة.

4. تمثيل السُّنَن الربّانية المفاتيح اللازمة للارتقاء الحضاري، والشرارة التي ينطلق منها الإنسان في البحث، وتدفعه إلى التجريب، وتُيسِّر له سُبُل الحياة، وتمنحه مَنَعةً ونشاطاً وروحاً تسري في قطاعات الحياة كلها، وهي -بالجُمْلة- حجر الزاوية للتقدُّم والنهضة، والبناء والتعمير.

5. اتّصاف المنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة بأنَّه أوَّل مَنْ وضع البذرة الأولى لعِلْم السُّنَن، الذي يُعَدُّ من أهمِّ العلوم اللازمة لدراسة سُنَن الله تعالى في الأنفس والآفاق، التي تشمل السُّنَن الهادية، والسُّنَن البانية، بما في ذلك السُّنَن الكونية، والتشريعية، والإنسانية، والنفسية، والاجتماعية، والتاريخية، والحضارية. وقد قدَّم في ذلك منهجاً مُتكامِلاً مُيسَّراً، كشف فيه عن دور الإنسان في صناعة الحضارة، وإسهامه في إغناء المعرفة وبناء المستقبل.

6. تأكيد البحث أنَّ للسُّنَن الربّانية علاقةً وثيقةً بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة، وأثراً كبيراً في الفكر الإنساني العالمي بوجه عام. ولهذا، دعا إلى إطلاق مُسمّى الإعجاز السُّنَني في القرآن والسُّنَّة، بوصفه بُعْداً غائباً عن الدراسات القرآنية.

7. تأكيد البحث أهمية القِيَم الإيمانية والأخلاق الشرعية، ومراعاة السُّنَن الاجتماعية ودورها في التغيير والإصلاح وتعزيز القِيَم الإنسانية الفاضلة، وبيان أنَّ عدم الالتزام بها يُفْضي إلى ضعف كلٍّ من المناعة الأخلاقية والقِيَم الإنسانية والحضارية، وأنَّ لهذه القيم دوراً في عمارة الأرض والنهوض بالأُمَّة وبناء المشروع الحضاري، والعاقبة لا تكون إلّا للمتقين.

وفي ما يأتي أهمُّ التوصيات التي انتهى إليها البحث:

1. الاهتمام بالمنهج السُّنَني في القرآن الكريم والسُّنَّة الـمُطهَّرة، وإحياء موضوعاته، وتناوله في الدراسات العُليا في رسائل الماجستير والدكتوراه، وبيان أثره في إحياء الثقافة السُّنَنية، وأهميته في بعث التفكير السُّنَني، وتدعيم اتجاهات النهضة والتجديد والإصلاح، وإحداث التغيير المطلوب.

2. إيلاء العلماء والباحثين عامةً موضوع السُّنَن الربّانية مزيداً من الاهتمام؛ لِما ينطوي عليه ذلك من فوائد علمية جَمَّة، ومعطيات حضارية كبيرة.

3. إطلاق مُسمّى عِلْم السُّنَن الربّانية، والإعلان عنه بوصفه عِلْماً جديداً، له مفهومه الـمُحدَّد، وموضوعاته الـمُتميِّزة، وخصائصه، وأنواعه، ومجالاته، وميادينه، ووظائفه، وتأصيله تأصيلاً إسلامياً وعلمياً صحيحاً، واشتراك لجنة علمية مُتخصِّصة مع فريق من مختلف التخصُّصات في وضع كتاب مُمنهَج؛ ليكون مُقرَّراً للدراسات الجامعية.

4. إنشاء قناة فضائية تُعرِّف الناس بالصوت والصورة بأنواع السُّنَن الإلهية وصور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وعرض نماذج من الاكتشافات العلمية الحديثة التي تُؤكِّد صدق ما يُذاع من حقائق ونبوءات وسَبْق علمي، بوصف ذلك مدخلاً جديداً للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ حتى يسجد العِلْم في محراب الإيمان، وتزول الجفوة الـمُفتعَلة بينهما.

5. التوجُّه صوب السُّنَن البانية بالقَدْر الذي تَوجَّهْنا به نحو السُّنَن الهادية، واستنبطْنا من آياتها وأحكامها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع والأحكام الفقهية.

المراجع

الأسدآبادي، عبد الجبار (د.ت). **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، تحقيق: توفيق الطويل، مراجعة: إبراهيم مدكور، إشراف: طه حسين، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (1405هـ). **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي.

الأصفهاني. الحسين بن محمد (1412هـ). **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داودي، بيروت–دمشق: دار العلم، الدار الشامية.

إنلو، فرانك (2009). **القيادة والتغيير**، ترجمة: بشير الجابري، بيروت: د.ن.

برغوث، عبد العزيز (1995). **المنهج النبوي والتغيير الحضاري**، قطر: كتاب الأمة.

البشتاوي، حاتم فايز (2011). **المنهج القرآني والظاهرة العلمية**، عمّان: دار الفرقان.

البوطي، محمد سعيد رمضان (1399هـ). **كبرى اليقينيات الكونية**، د.م: دار الفكر.

البوطي، محمد سعيد رمضان (1962). **من روائع القرآن**، ط2، دمشق: مكتبة الفارابي.

البوطي، محمد سعيد رمضان (1402هـ). **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم**، بيروت: دار الفكر.

الحضري، أنور قاسم (1436هـ). **السياسة الشرعية في أزمنة الوهن والاستضعاف**، الرياض: دار الوعي.

الخطيب، شريف الشيخ صالح (2004). **السُّنَن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك**، الأردن: الدار العثمانية.

خليل، عماد الدين (1405هـ). **ابن خلدون إسلامياً**، بيروت: دار المكتب الإسلامي.

خليل، عماد الدين (1403هـ). **العقل المسلم والرؤية الحضارية**، قطر: دار الحرمين.

رضا، محمد رشيد (1990). **تفسير المنار**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

السامرائي، نعمان (1421هـ). **نحن والحضارة والشهود**، قطر: كتاب الأُمَّة.

أبو السعود، محمود (1975). "المذهبية الاقتصادية الإسلامية"، **مجلّة المسلم المعاصر**، عدد4.

أبو سنينة، أشرف (2002). **موسوعة عالَم الكون والفضاء**، ط2، عمّان: دار أسامة.

شهوان، راشد (2009). **السُّنَن الربّانية في التصوُّر الإسلامي**، عمّان: دار الأكاديميون للنشر والتوزيع.

صبري، مصطفىٰ (1981). **موقف العقل والعلم والعالَم من ربِّ العالمين وعباده المرسلين**، ط2، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن عاشور، محمد الطاهر (1984). **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر.

ابن عبد البر، يوسف (1398هـ). **جامع بيان العلم وفضله**، بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الحميد، محسن (2022). **المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري**، العراق: دار التفسير للطبع والنشر.

عبد الحميد، محسن (2000). **منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام**، بغداد: شركة الرشد للطباعة والنشر.

عدد من الـمُتخصِّصين (1997). **موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**، إشراف: صالح بن عبد الله بن حميد، ط4، جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع.

عثمان، محمد سيِّد (د.ت). **سيكولوجية التعليم، فصل نظريات التعلُّم**، القاهرة: جامعة عين شمس.

الفاروقي، إسماعيل راجي (2015). **التوحيد جوهر الحضارة الإسلامية**، عمّان: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

الفيروزآبادي (د.ت). **القاموس المحيط**، د.م: مؤسسة الرسالة.

القاسمي، جمال الدين (د.ت). **محاسن التأويل**، د.ن، د.ت، ج13، ص211.

القرضاوي، يوسف (د.ت). "عوامل المرونة والسعة في الشريعة الإسلامية"، **حولية كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**، جامعة قطر، عدد1.

القرضاوي، يوسف (د.ت). **الخصائص العامة للإسلام**، القاهرة: مكتبة وهبة.

قطب، سيِّد (1399هـ). **خصائص التصوُّر الإسلامي**، د.م: دار الشروق.

ابن كثير، إسماعيل (1997). **البداية والنهاية**، عناية وتوثيق: عبد الرحمن اللادقي، ومحمد غازي بيضون، ط2، بيروت: دار المعرفة.

مجمع اللغة العربية (د.ت). **المعجم الوسيط**، د.م: د.ن.

مريسيون، كريس (د.ت). **العلم يدعو للإيمان**، ترجمة: محمد صالح الزركلي، د.م: د.ن.

ابن منظور (د.ت). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.

بن نبي، مالك (1986). **شروط النهضة**، ترجمة: عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر.

النجار، عبد المجيد عمر (1999 أ). **عوامل الشهود الحضاري**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

النجار، عبد المجيد عمر (1999 ب). **فِقْه التحضُّر الإسلامي**، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

نوفل، عبد الرزاق (1998). **الله والعلم الحديث**، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع.

References

ʿAbd al-Ḥamīd, M. (2000). *Manhaj al-Taghyīr al-Ijtimāʿī fī al-Islām*. Baghdad: Sharikat al-Rushd li al-Ṭibāʿah wa al-Nashr.

ʿAbd al-Ḥamīd, M. (2022). *Al-Mathhabiyyah al-Islāmiyyah wa al-Taghyīr al-Ḥaḍārī*. Iraq: Dār al-Tafsīr li al-Ṭabʿ wa al-Nashr.

Abu al-Suʿūd, M. (1975). Al-Mathhabiyyah al-Iqtiṣādiyyah al-Islāmiyyah. *Majallat al-Muslim al-Muʿāṣir*, 4.

Abu Snīnah, A. (2002). Mawsūʿat ʿĀlam al-Kawn wa al-Faḍā' (2nd ed.). Amman: Dār Usāmah.

Al-Asad Ābādī, ʿA. (n. d.). *Al-Mughnī fī Abwāb al-Tawḥīd wa al-ʿAdl* (T. Al-Ṭawīl, Ed.; I. Madkūr, Rev.; Ṭ. Ḥusayn, Sup.). Cairo: Al-Mu'assasah al-Maṣriyyah al-ʿĀmmah li al-Ta'līf wa al-Anbā' wa al-Nashr, Al-Dār al-Maṣriyyah li al-Ta'līf wa al-Tarjamah.

Al-Aṣbahānī, A. (1405 AH/ 1985 CE). *Ḥilyat al-Awliyā' wa Ṭabaqāt al-Aṣfiyā'* (4th ed.). Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿArabī.

Al-Aṣfahānī, A. (1412 AH/ 1992 CE). *Al-Mufradāt fī Gharīb al-Qur'ān* (Ṣ. Dāwūdī, Ed.). Beirut-Damascus: Dār al-ʿIlm, Al-Dār al-Shāmiyyah.

Al-Bishtāwī, Ḥ. (2011). *Al-Manhaj al-Qur'ānī wa al-Ẓāhirah al-ʿIlmiyyah*. Amman: Dār al-Furqān.

Al-Būṭī, M. (1399 AH/ 1979 CE). *Kubrā al-Yaqīniyyāt al-Kawniyyah*. Dār al-Fikr.

Al-Būṭī, M. (1402 AH/ 1982 CE). *Manhaj al-Ḥaḍārah al-Insāniyyah fī al-Qur'ān al-Karīm*. Beirut: Dār al-Fikr.

Al-Būṭī, M. (1962). *Min Rawā'iʿ al-Qur'ān* (2nd ed.). Damascus: Maktabat al-Fārābī.

Al-Fārūqī, I. (2015). *Al-Tawḥīd Jawhar al-Ḥaḍārah al-Islāmiyyah*. Amman: Al-Maʿhad al-ʿĀlamī li al-Fikr al-Islāmī.

Al-Fayrūz Ābādī (n. d.). *Al-Qāmūs al-Muḥīṭ*. Mu'assasat al-Risālah.

Al-Ḥaḍarī, A. (1436 AH/ 2015 CE). *Al-Siyāsah al-Sharʿiyyah fī Azminat al-Wahn wa al-Istiḍʿāf*. Riyadh: Dār al-Waʿy.

Al-Khaṭīb, Sh. (2004). *Al-Sunan al-Ilāhiyyah fī al-Ḥayāt al-Insāniyyah wa Athar al-Īmān bihā fī al-ʿAqīdah wa al-Sulūk*. Jordan: Al-Dār al-ʿUthmāniyyah.

Al-Najjār, ʿA. (1999 a). *ʿAwāmil al-Shuhūd al-Ḥaḍārī*. Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī.

Al-Najjār, ʿA. (1999 b). *Fiqh al-Taḥaḍḍur al-Islāmī*. Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī.

Al-Qaraḍāwī, Y. (n. d.). ʿAwāmil al-Murūnah wa al-Saʿah fī al-Sharīʿah al-Islāmiyyah. *Ḥawliyyat Kulliyyat al-Sharīʿah wa al-Dirāsāt al-Islāmiyyah*, *Jāmiʿat Qatar*, 1.

Al-Qaraḍāwī, Y. (n. d.). *Al-Khaṣā'iṣ al-ʿĀmmah li al-Islām*. Cairo: Maktabat Wahbah.

Al-Qāsimī, J. (n. d.). *Maḥāsin al-Ta'wīl* (13), p. 211.

Al-Sāmirrā'ī, N. (1421 AH/ 2001 CE). *Naḥnu wa al-Ḥaḍārah wa al-Shuhūd*. Qatar: Kitāb al-Ummah.

Barghūth, ʿA. (1995). *Al-Manhaj Al-Nabawī wa al-Taghyīr al-Ḥaḍārī*. Qatar: Kitāb al-Ummah.

Bin Ḥamīd, Ṣ. (Ed.). (1997). *Mawsūʿat Naḍrat al-Naʿīm fī Makārim Akhlāq al-Rasūl al-Karīm* (4th ed.). Jeddah: Dār al-Wasīlah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ.

Bin Nabī, M. (1986). *Shurūṭ al-Nahḍah* (ʿU. Masqāwī & ʿA. Shāhīn, Translators). Damascus: Dār al-Fikr li al-Ṭibāʿah wa al-Nashr.

Ibn ʿAbd al-Barr, Y. (1398 AH/ 1978 CE). *Jāmiʿ Bayān al-ʿIlm wa Faḍlih*. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah.

Ibn ʿĀshūr, M. (1984). *Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr*. Tunisia: Al-Dār al-Tūnisiyyah li al-Nashr.

Ibn KathĪr, I. (1997). *Al-Bidāyah wa al-Nihāyah* (2nd ed.) (ʿA. Al-Lādiqī, & M. Bayḍūn, Eds.). Beirut: Dār al-Maʿrifah.

Ibn Manẓūr (n. d.). *Lisān al-ʿArab*. Beirut: Dār Ṣādir.

Inlū, F. (2009). *Al-Qiyādah wa al-Taghyīr* (B. Al-Jābirī, Translator). n.p.

Khalīl, ʿI. (1403 AH/ 1983 CE). A*l-ʿAql al-Muslim wa al-Ru'yah al-Ḥaḍāriyyah*. Qatar: Dār al-Ḥaramayn.

Khalīl, ʿI. (1405 AH/ 1985 CE). *Ibn Khaldūn Islāmiyyan*. Beirut: Dār al-Maktab al-Islāmī.

Majmaʿ al-Lughah al-ʿArabiyyah (n. d.). A*l-Muʿjam al-Wasīṭ*. n. p.

Mrīsyūn, K. (n. d.). *Al-ʿIlm Yadʿū li al-Īmān* (M. Al-Zarkalī, Translator), n. p.

Nawfal, ʿA. (1998). *Allāh wa al-ʿIlm al-Ḥadīth*. Cairo: Al-Hay'ah al-ʿĀmmah al-Maṣriyyah li al-Kitāb, Maktabat al-Usrah, Mahrajān al-Qirā'ah li al-Jamīʿ.

Quṭub, S. (1399 AH/ 1979 CE). *Khaṣā'iṣ al-Taṣawwur al-Islāmī*. Dār al-Shurūq.

Riḍā, M. (1990). *Tafsīr al-Manār*. Cairo: Al-Hay'ah al-Maṣriyyah al-ʿĀmmah li al-Kitāb.

Ṣabrī, M. (1981). *Mawqif al-ʿAql wa al-ʿIlm wa al-ʿĀlam min Rab al-ʿĀlamĪn wa ʿIbādih al-Mursalīn* (2nd ed.). Beirut: Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī.

Shahwān, R. (2ī009). *Al-Sunan al-Rabbāniyyah fī al-Taṣawwur al-Islāmī*. Amman: Dār al-Akādimiyūn li al-Nashr wa al-Tawzīʿ.

ʿUthmān, M. (n. d.). *Saykulūjiyyat al-Taʿlīm, Faṣl Naẓariyyāt al-Taʿallum*. Cairo: Jāmiʿat ʿAyn Shams.

Scientific and Civilizational Dimensions of the Characteristics of Divine Law (*al-Sunan al-Ilāhiyyah)*

Rashid Said Yousef Shahwan*

Abstract

The study examines the characteristics of Divine Law (*al-Sunan al-Ilāhiyyah*) and their denotations in the Holy Qur'an and the Prophetic Tradition. It focuses on the scientific and civilizational dimensions of these characteristics and their significance in the development and progress of nations. The study comprises an introduction, two topics and a conclusion. The introduction discusses the significance of the study, its parameters and technical terms. The first topic comes under the title of "Scientific and Civilizational Dimensions of the Characteristics of Divine Law (*al-sunan al-ilāhiyyah*)"; whereas the second is designated as "Social Laws (*al-sunan al-ijtimāʿiyyah*) as a Way of Building Nations and Developing Civilizations." The conclusion presents the findings and the recommendations of the study.

Keywords: Divine Law (*al-Sunan al-Ilāhiyyah*), social laws (*al-sunan al-ijtimāʿiyyah*), nation building, the characteristics of Divine Law

*Rashid Said Yousef Shahwan (1953-) teaches Islamic Studies at The World Islamic Sciences and Education University. Shahwan graduated from Al-Aqsa Islamic High School, Jerusalem, in 1972. Email: obadashahwan@gmail.com.